مقدمة

بعث الله محمداً ﷺ فرداً لا جيوشَ مجندَةً معه، ولا عُدَد منظمةً تحميه، ولا قوة تسانده، وإنما كانت معه نفسٌ طاهرة، وعزيمة ثابتة، وإيمان راسخ، ودعوة إلى الله بالمعروف.

قام هذا النبي الكريم لا حول له ولا قوة إلا الدعوة إلى الخير: ينطق بها قلبُه قبل أن ينطق بها لسانه، فأجابه نفرٌ قليل صَفَتْ نياتهم، وميزوا الخير من الشر، وعرفوا الحق الذي دعاهم إليه، فأجابوه وأعانوه، ودعوا إلى الله وإلى الحق كما دعا، وأخلصوا في الدعوة إليه، فكان الله معهم، ومكَّن لهم في الأرض كما وعدهم، وجعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين، وأبقى ذكرهم في الخالدين.

يعتقد كثير من الناس أن الدين الإسلامي ما قام إلا بالسيف، وهذا محض كذب وافتراءٍ على الله وعلى دين الله، والحقُّ أن الدين الإسلامي ما قام إلا بالدعوة والإرشاد، ولم يرسل الله محمداً ﷺ سَفَّاكًا، وإنما بعثه رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأمره أن يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادل بالتي هي أحسن. وأما القتال، فقد شُرع لحماية الدعوة،

وتمهيد السبيل لها، ودفع شر المعارضين عنها، ولهذا كان من شروط الدعوة أن يرسل البعث أولاً يدعو الناس إلى الله ثلاثة أيام؛ فإن وجد منهم معارضة، شدّد معهم، أو مقاومةً دافع عن الدعوة بقتالهم، وإن لانوا، دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد أوجب الله تعالى على المسلمين أن تقوم منهم طائفة بالدعوة إليه؛ حفظاً للدين من أن تلعب به أهواء المبتدعين المفسدين؛ فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤]، وعاب أولئك الذين أهملوا أمر هذا الركن الحافظ للدين، والجامع شمل أتباعه على الصراط المستقيم، عابهم بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٩].

ثم بين أن إهمال الدعوة يُسبب إماتة الغيرة الدينية في النفوس؛ وكفى بها عِلَّةً في تشتيت الشمل الذي يدعو الإنسان إلى الاستعانة بعدوّه في الدين والجنسية؛ فقال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[المائدة: ٨٠].

بينما نرى الدعوة إلى الله في الوقت الحاضر قد ضعف شأنها، ولذلك أسباب:

أولاً: أن القلوب خلت من احترام الدين، فلم يعد له سلطان على النفوس، ولذلك دواع:

أ ـ اقتصارُ الوُعَّاظ في وعظهم على العبادات والأخلاق، وإهمالهم ما يتصل بعظمة الدين الإسلامي في نواحيه الحكومية والسياسية والنظامية والدفاعية والتربوية.

ب ـ كثير من الوعاظ يدعون الناس إلى إهمال نعيم الحياة، والتخلِّي عن الدنيا، وحبس النفس على العبادات؛ وهذا خلاف ما جاء به الدين الإسلامي؛ من حيث إنه دين يُبيح ما أحلَّ الله من الدنيا؛ بينما النفوس قد جبلها الله على حب الحياة، وحب المال ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الأعراف: ٣٢].

ج ـ انتشارُ المذهبِ القائلِ بفصل الدين عن الحياة؛ بينما الدين الإسلامي قد مزج الحياة بالدين مزجاً لا يستطيع أحد فصله؛ فجعل كل شأن المسلم ديناً؛ فالمسلم في عبادة أينما كان: في مسجده، ومتجره، في بيته، ومدرسته، في مراحه، أو ميدانه؛ إذا ابتغى بعمله ذلك وجه الله، وطبق فيه أوامر الله.

د ـ إهمالُ الدروس الدينية في المدارس، واقتصارُ التعليم فيها على دروس مقتضبة في العبادات لا تطبق أبداً.

ثانياً: أَن أكثر الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر لا يأتمرون بما يأمرون، ولا ينتهون عما يَنْهَون؛ ومثلُ هؤلاء لا أثر لقولهم في النفوس؛ إذ إن الكلام إذا خرج من القلب، وصلَ إلى قلب السامع، بينما إذا خرج من اللسان، لا يتعدّى الآذان.

ثالثاً: تشديد بعض الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر في دعوتهم؛ وذلك مما يُنَفِّر السامع، والأمرُ بمعروف يجب أن يكون بمعروف.

والله تعالى أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يدعو الناس إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلهم بالتي هي أحسن، وقال له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

من أمثلة دعوته ﷺ أنه دخل المسجد ذات يوم، والناسُ بين مصلٍّ وقارىء، فقال: «أَيُّها النَّاسُ! كُلُّكُم يُناجي رَبَّه، فلا يَجْهَرْ قارِيكُمْ على مُصَلِّيكم»[(١)]؛ فلم يعب جهر القارىء، وإنما حبذ عمله كما حبذ عمل المصلي، وأمر القارىء ألاَّ يشوش عليه.

إن للدعوة إلى الله أهميةً عظمى في الدين الإسلامي؛ إذ بها عَظُمَ شأنُه، وانتشر سلطانُه على قلوب مئات الملايين من البشر، وبإهمالها دُكَّ ذلك البناء الشامخ، وأصبح أنقاضاً مفكّكة، وصارت أجزاؤه نهباً مقسماً بين الكفرة الأعداء، واشتغل أهله بجمع الحطام، وغفلوا عما يمس كرامة الدين في حاله ومآله؛ فلا يهم أحدَهم إلا الساعةُ التي هو فيها، ولا يلفت نظرهَ إلا المصلحةُ الخاصة التي يدرُّ فيضُها عليه، ولو كان في ذلك هلاكُ أخيه المسلم، أو ضياع دينه، أو تشتيت شمله؛

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٨٠٩٢)، والحاكم (١١٦٩)، والبيهقي (٤٤٧٩)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، ولفظه عندهم: «.. فلا يؤذين بعضكم بعضاً، ولا يرفعن بعضكم على بعض في القراءة، أو قال: في الصلاة».

مستدلين على ذلك بقول الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[المائدة: ١٠٥]، وغفلوا عن قول الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[المائدة: ٧٨ـ٧٩]، وإني أرجو وأتفاءل ـ متيمناً بقول النبي ﷺ: «تَفَاءَلُوا بالخَيْرِ تَجِدُوه»[(١)] ـ أرجو أن يعيد الله للإسلام مجدَه، وأن تُبعث الأمة الإسلامية من حياة هي أشبه بالموت إلى حياة الجد والعمل والقوة في الدعوة؛ فأرى:

١ ـ ملوكَ المسلمين وقد وَحَّدُوا رايتهم على إمام عادل، وخليفةٍ عامل، وقام دعاتُهم في البلاد البعيدة يدعون الناس إلى الله وإلى دين الله.

٢ ـ وعلماءَ المسلمين يدعون العوام من المسلمين بإخلاص إلى العمل بدينهم؛ فيشرحون ما يجهلون من حلال وحرام في دينهم، وما وجب عليهم من عبادات، وما قنّن لهم من نظام، وما حسن لهم من أَخلاق.

٣ ـ وكُتَّابَ المسلمين وقد اعتنت صحفُهم ونشراتهم بالشؤون الإسلامية، وقضت على ما نراه الآن من مفاسد غايةُ أهلها القضاءُ على الفضيلة.

---

(١) لم أجده حديثاً، وإنما روي عن كعب الأحبار قال: «صاح خُطّافٌ عند سليمان ـ عليه السلام ـ، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: قدّموا خيراً تجدوه». انظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٣/ ٣٥٠).

٤ ـ والمدارسَ وقد دُوِّنَ في منهجها درسُ الدين بأوضح معانيه: عبادة، ونظاماً، وجهاداً، وحكماً.

٥ ـ والدعوةَ العامة وقد شملت الأوساط الإسلامية؛ فالأبُ يربي أولاده التربية الإسلامية، والصديقُ يدعو أصدقاءه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأرى التاجرَ في متجره، والعاملَ في معمله، والمعلمَ في مدرسته، والرجلَ في طريقه؛ وكلُّهم يدعون إلى الله بأمر الله متى دعت الحاجة إلى الدعوة.

في ذلك اليوم يسعد الإسلام بأهله، ويعود كما بدأ؛ فطوبى للمسلمين يومئذ، وما ذلك على الله ببعيد.